الدرس السابع العاشر

تفسير سورة المعارج [١٨ :٢٥]

{وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) }

{وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [المعارج:١٧-١٨] أي أن غايته في هذه الدنيا كانت مجرد جمع الحطام، واللهاث خلف الشهوات كما وصفه النبيﷺ ، (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)[1].

هذا هو حاله؛ مجرد الجمع أي أنه جموع منوع، فهو يجمع ويوعي ويوكي ولا يبذلها لطالبها، وهذا يدل على التلازم الوثيق بين الاعتقاد والسلوك، فكما في سورة القلم في صفة المكذب بأنه {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [القلم: ١٢]، وكما في سورة الماعون: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون:٦-٧]، فلما انطوت قلوبهم على الكفر بالله تعالى فسدت فطرهم وأمزجتهم وغلب عليهم الشح، فلا هم أدوا حق الله ولا هم أدوا حق عباد الله، فلا يصل خيره إلى أحد.

{ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ تر مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١} [سورة المعارج:٢١]

هكذا يكشف الله ﷻ طبيعة الإنسان، والله أعلم بمن خلق، {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤].

في مواضع عدة من كتاب الله تعالى، نجد الله ﷻيصف النفس البشرية، ويصف طبيعة الإنسان، مما يستدعي العناية بهذه المواضع؛ لأنها الأساس الصحيح لما يُسمى بعلم النفس، فإن اللهﷻخلق الإنسان وركبه، وهو سبحانه أدرى بصفاته وبنيته النفسية، فينبغي أن يكون ذلك أساسًا في معرفة النفس الإنسانية وانفعالاتها وسلوكها.

[1] أخرجه البخاري رقم (٦٤٣٥).

والمراد بالإنسان هنا جنس الإنسان من حيث هو إنسان، {خُلِقَ هَلُوعًا}، وقد اختلف في تفسير كلمة هلوعًا على ألفاظ متعددة، ولكن ليس خير من تفسير القرآن بالقرآن، فالله ﷻ تولى بيان معناها، فقال: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج:٢٠-٢١] فلا مُحوج للبحث عن تفسيرات أُخر، أي: إذا أصابته مصيبة، ولحقه ضرر؛ فإنه يُصاب بالفزع والضجر والتبرم، وإذا أدرك ما يتمنى شح وأمسك.

كما قال في آية أخرى: {لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فصلت:٥١]، وأمَّا في حال الخير والسعة، فيقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج:٢٠-٢١]، فإذا أنعم الله عليه وأوسع وبسط له في الرزق، أمسك وشح وبخل، فهذه طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان، إلا من عصم الله تعالى.

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (شرُّ ما في الرجلِ شُحٌّ هالِعٌ وجُبنٌ خالع)[1]، وذلك أن أعظم صفات الرجولة الشجاعة والكرم، فإذا كان الرجل لا يتحلى بهذين الوصفين، فهذا نقص في رجولته، وهو حديث صحيح.

فالنفس الإنسانية، جَمُوعة منوعة، إلا أن الله ﷻ استثنى، فقال: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [المعارج:٢٢] فإن الصلة بين العبد وربه تجعل منه خلقًا آخر، فإذا اتصل بربه استمد منه أسباب القوة، وستر ما يكون فيه من أوصاف دنيئة وصفات عيب ونقص، كما قال الله ﷻ: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [العصر: ١-٣].

فالإنسان من حيث هو إنسان، يتسم بهذه الصفات السيئة، لكن صلته بالله تعالى وإيمانه به وعمله الصالح يرقع هذه الثغرات، فيبلغ من الكمال ما كتب الله تعالى له. والمراد بالمصلين الذين يقيمون الصلاة، والصلاة الممدوحة هي الصلاة التي تصل العبد بربه، لا مجرد القيام والقعود والركوع والسجود، فإنها وإن سقط بها الطلب، وبرأت بها الذمة، لكن الذي يحصل به الأثر والكمال

(١)أخرجه أبو داود رقم (٢٥١١)، وأحمد رقم (٨٠١٠).

الإنساني صلاة القلب، بمعنى أن يكون القلب في ركوعه، وسجوده وقيامه وقعوده، موصولًا بالله رب العالمين، فإذا كان كذلك فإن نفسه تسمو وترتقي وتتخلص من آفاتها.

الله تعالى قد ألهم النفس الخير والشر، كما قال: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس:٧-١٠]، وأعظم زكاة للنفس، تكون بالصلاة، فإن الصلاة كما أخبر ربنا تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتزكي النفس، وتربيها وتنفي عنها آفاتها، ثُمَّ بسط هذا الوصف {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج:٢٣]، فليسوا مجرد مصلين، نالوا هذا الوصف بأدنى سبب، بل هم دائمون على صلاتهم.

وكلمة (دائمون)، تشمل معاني عدة، فمنها المحافظة على الصلاة، فهم لا يصلون ويخلون، بل هم دائمون على الصلاة، يحافظون عليها، لا يقطعونها.

ومن معاني قوله: (دائمون)، السكينة، أي: أنهم في صلاتهم ساكنون قارُّون، لا يعبثون، لا يلتفتون، وهذا المعنى مستعمل شرعًا، كما يقال الماء الدائم، وهو الماء الساكن الراكد الذي لا يجري، كما نهى ﷺ (لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لاَ يَجْرِي، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ)[1].

ويُذكر عن بعض الصالحين أنه سقط جانب المسجد، وهو يصلي فما قطع صلاته، وأحد أصحاب النبي كان يحرس ليلة فجاء العدو ورماه بسهم، وهو ماضٍ في تلاوته، فمضى ولم يقطع صلاته، حتى رماه بثانٍ وثالث، فلما أثخنته الجراح وخشي أن يؤتى معسكر المسلمين من قبله أيقظ صاحبه.

فقال له صاحبه: "ما منعك أن توقظني إذ رماك أول مرة"؟ قال: "إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها"، قارن هذا بما يقع منك في كثير من الناس، حينما يدخلون في صلاتهم، فيأخذون بالعبث فيما يحملونه، وما يشغلهم من الشواغل.

فمن معاني دائمون يعني ساكنون خاشعون، مستقرون، وقد جاء في بعض الآثار أن رجلًا كان يعبث في صلاته، فقال: (لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحهُ)[1]، وقد كان الصالحون من عباد الله يُرى عليهم من السكينة والخشوع في صلواتهم، ما يتعجب منه الناظر إليهم.

(1) أخرجه البخاري رقم (٢٣٩)، ومسلم رقم (٢٨٢).

فيُروى عن عبد الله بن الزبير ﷺ أنه إذا سجد في صلاته، تأتي العصافير وتقع على ظهره، تظنه أصل جدار، لما فيه من الاخبات والسكينة، وعدم الحركة، ولما حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي بمكة، وكان يرمي بالمنجنيق، فذهب حجر من أحجار المنجانيق بثوبه وهو يصلي بالبيت، فلم يقطع صلاته.

وثمَّ معنى ثالث لدائمون، وهو: المداومة أي: إذا عملوا عملًا داوموا عليه، وهذا من هدي النبي ﷺ فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ)[٢]، وقال: (وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ)[٣] ، وأخبرته عنه عائشة رضي الله عنها أن عمله كان ديمة، أي مستديمة، فإذا عمل عملًا أثبته، وحذر بعض أصحابه من قطع العمل، فقال: (يَا عَبْدَ اللهِ، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ)[٤].

{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)}، لما ذكر الله تعالى حقه في الصلاة، ذكر حق الفقير بالمال، وهذا يقابل ما ذكره في طبيعة الإنسان أنه إذا مسه الخير منوعًا، فمن شأن هؤلاء المستثنين أنهم يعطون الفقير حقه ولا يمنعونه، وحق المال هو زكاته، وبذل النفقات الواجبة. ومن الناس من يُنعم الله تعالى عليه، لكن يمنع الحق الواجب في ماله، فلا يُنفق على من تجب عليه نفقته، من ولد أو والد، أو زوج، أو بهيمة، فإن للبهيمة حق على صاحبها أن يعلفها، ولو لم يفعل لأثم.

{لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج:٢٥]، فالسائل هو الذي يستجدي الناس، ويطلب منهم المساعدة، والمحروم هو الذي لا يسألهم، ولا يُفطن له فيُعطى، فلهذا قيل عنه محروم.

لكن هذا الموفق الذي في ماله حق معلوم للسائل والمحروم، يعطي من سأله من أصحاب الحقوق، ويتفقد من لم يسأله لهؤلاء الذين **{لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا}** [البقرة:٢٧٣]، ويكون في نفوسهم تعفف واستغناء.

---

(١) أخرجه العراقي في طرح التثريب رقم (٣٧٣/٢).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٧٤٦).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٤٦٤)، ومسلم رقم (٧٨٣)، متفق عليه.
(٤) أخرجه البخاري رقم (١١٥٢)، ومسلم رقم (١١٥٩)، متفق عليه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فالمصلون قد أدوا حق الله تعالى في الصلاة، وأدوا حق العباد في الزكاة.

الفوائد المستفادة:

الفائدة الأولى: التنبيه على أسلوب التضمين في القرآن الكريم، وفائدته: أنه يجمع معنيين، المعنى المستفاد من الفعل الظاهر والمعنى المستفاد من الفعل المضمن.

الفائدة الثانية: جهالة الكفار وحماقتهم بطلب العذاب، وكان لهم سعة في أن يراجعوا أنفسهم.

الفائدة الثالثة: ثبوت العذاب والجزاء وحتميته.

الفائدة الرابعة: إثبات علو الله تعالى بدلالة لفظ العروج، والعروج لا يكون إلا إلى أعلى.

الفائدة الخامسة: إثبات صعود الأرواح على أحد القولين بأن الروح في الآية يراد بها أرواح العباد. دلت النصوص على أن الروح خلق لطيف يصعد ويهبط ويدخل ويخرج.

الفائدة السادسة: سعة أقطار السموات، تأملوا. ما أوسع خلق الله، خلق عظيم هائل، وقد كان الناس يبصرون هذا بالعين المجردة ولا زالوا، {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} [الواقعة:٧٥-٧٦] فلما جاء علم الفلك الحديث أتى بعلوم باهرة في تحديد المسافات بين الأجرام السماوية وقياسها بالسنين الضوئية بما يدل على أننا ذرة صغيرة في هذا الكون.

حتى إن الشمس التي هي أقرب النجوم إلينا، يصل ضوئها إلينا في ثمان دقائق مع سرعة الضوء الهائلة التي تبلغ ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وأقرب نجم بعد الشمس يقال له (قنطورس) يحتاج الضوء ليصل إليها إلى نحو أربع سنين، فتأمل في سعة ملك الله! هذا في مجرة واحدة، وهي المجرة التي تتبعها مجموعتنا الشمسية فكيف بالمجرات البعيدة في السموات بعيدة سحيقة؟!

فما أعجب حال هؤلاء الملاحدة المنكرين لوجود الله المنكرين لربوبيته، أين يذهبون؟ يا لهم من أقزام سفهاء حينما يتبجح أحدهم ومنكرًا وجود الله تعالى!.

الفائدة السابعة: فضيلة الصبر الجميل. والصبر من أمهات الأخلاق، وينبغي للمؤمن أن يوطن نفسه عليه، فإن منزلة الصبر من الدين كمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ربنا ﷻ: {إِنَّمَا يُوَفَّى

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠]، والصبر أنواع، صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله وصبر على أقدار الله المؤلمة، فينبغي للمؤمن أن يتحلى بأنواع الصبر الثلاثة، فإن الصبر يبلغ به الإنسان ما لا يبلغ بعمله، لا يزال البلاء بأحدكم حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة بفضيلة الصبر.

الفائدة الثامنة: اضطراب موازين الكفار ومقاييسهم الزمانية والمساحية والموضوعية. نظرة الكفار قاصرة وخاطئة، فهم في تقديرهم للأمور لا يدركون جزء يسيرا من الحقيقة، فهم لا يتصورون هذا الخلق الفسيح ومساحاته الهائلة، ولا يتصورون الزمان الذي يجريه الله.

الفائدة التاسعة: بيان التحولات الكبرى التي تقع في السموات والأرض والجبال يوم القيامة.

الفائدة العاشرة: شدة هول يوم القيامة. فينبغي للمؤمن إذا أمسك بدفتي المصحف ومرت به هذه الآيات التي فيها ذكر صفة القيامة أن يتدبر هذه الأحوال، وإن لم يدرك حقيقتها وكنهها مهما أمعن وأدمن التفكير لكن ينبغي أن يتفكر فيها بالمعنى المشترك الذي يكون في الأذهان، فإن هذا يعظه ويصقل قلبه، فإذا أراد الإنسان أن يستلين قلبه ويداويه فعليه بموعظة القرآن، فلا موعظة أبلغ من موعظة القرآن.

الفائدة الحادية عشرة: تقطع الأواصر يوم القيامة طلبا للنجاة والافتداء.

الفائدة الثانية عشرة: تيئيس الكفار من النجاة يوم القيامة.

الفائدة الثالثة عشرة: شدة عذاب النار.

والإنسان يحتاج من الخوف من الله ﷻ إلى القدر الذي يحجزه عن معاصيه وحسب، وما زاد فلا حاجة له به، وليتنا نحصل هذا القدر. ربما بلغ الخوف لدى بعض الناس مبلغا يحصل به كدر ونكد في العيش، فيكون الإنسان قلقا مضطربا، هذا ليس مطلوبًا، القدر المطلوب من خوف الله تعالى ومن خوف وعيده هو الذي يحجز العبد عن معصيت الله، وما زاد فلا حاجة له به؛ لأنه يكدر صفوه ويفسد عيشه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وقد كان النبي ﷺ من أهنأ الناس عيشا وأطيبهم مجلسا، فعليك أن تضبط المعادلة بين الخوف والرجاء.

الفائدة الرابعة عشرة: مقابلة الإدبار المعنوي في الدنيا بالطلب الحسي في الآخرة.

الفائدة الخامسة عشرة: الاقتران بين الكفر والشح.